قسوة القلوب وعلاجها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس

الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنّة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

ألقي يوم الخميس 8/1/1431

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله الذي يسّر لنا هذا اللقاء، ونسأله سبحانه وتعالى كما منّ علينا ويسّر بهذا الاجتماع المبارك أن ينفعنا به، ويكون ذُخْرًا لنا يوم نلقاه سبحانه وتعالى.

لقاؤنا اليوم إن شاء الله سنتكلم فيه عن: آثار الأعمال الصالحة والفُرص المباركة التي يُيسِّرها الله للعباد على القلب، أي مواسم الطاعة وأثرها على القلوب، لأننا في موسم من مواسم الطاعة العظيمة، وهو: هذا (الشهر المحرّم) الذي عظّمه الله.

وقد مرّ معنا الكلام عن الأشهر الحرم، وكيف أن الله -عزّ وجلّ- جعلها عظيمة، وجعل الذنب فيها عظيم.

فموضوعنا: **ما أثر تتابع هذه المواسم على القلب؟**

نبدأ أولاً بالكلام حول القلوب:

القلوب -كما تعلمون- هي محطّ نظر الرب، وعليها وعلى أعمالها الحساب والعقاب، وهذه القلوب هي سبب مضاعفة الأجور، فكلما قوي الإيمان فيها، كانت الأعمال أشدّ بركةً وقبولًا عنده سبحانه وتعالى.

وقد ورد: ((إذا دخل النور القلب، انفسح وانشرح))[1]

ومن علامات دخول النور إلى القلب: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله.

فهذا القلب إذا كان بهذا الاستعداد، أنه منيب إلى دار الخلود، متجاف عن دار الغرور، مستعدّ للموت قبل النزول، هذا القلب سيكون العمل القليل منه مباركًا، وستكون المواسم بالنسبة له فواتح للخير، ينتفع بها ولا تراه مستهينًا بمواسم الطاعة.

ولذلك لمّا ترى من نفسك استهانة بموسم الطاعة، وعدم فرح به، وعدم شعور أن غنيمة قادمة إليك، فيُخشى أن يكون ذلك سببه: الالتهاء بالدنيا، وعدم الإقبال على الآخرة، وهذا ما نعبّر عنه بـ (قسوة القلوب).

فأصبح إقبال مواسم الطاعة اختبارًا للقلب: هل هو ملتهٍ بالدنيا -كما ذكرنا الأسبوع الماضي الالتهاء بالتكاثر- أم أنه مقبل على الآخرة؟

فكلما أقبل عليك موسم من مواسم الطاعة، كان اختبارًا لك؛ هل قلبك مقبل على الدار الآخرة، يغتنم الفرص وينتظرها؟ وهذا دلالة لين القلب.

أم أنه معرض عن الآخرة مشتغل بالدنيا -هذه المواسم قليلها وكثيرها عنده يدخل فيها على العادة-؟

---

[1] [رواه الترمذي في سننه].

وأنتم ترون نعمة الله؛ أنه أحيانا وأمدّ في أعمرنا حتى بلغنا هذا الشهر المحرم، نسأله أن يكمل علينا النعمة، فنصوم هذا اليوم العظيم، الذي وراءه كفارة للذنوب.

فإذا فهمت أن ذنوبك عظيمة، وأن الدار الآخرة عظيمة، وحملت همّها، فلمّا يقال لك: هذا اليوم لو صمته، كان سببًا لكفارة ذنوبك، فوقع في قلبك الفرح بهذه الفرصة، كان هذا إشارة إلى حياة القلب.

والعكس بالعكس.. إذا رأيت أن صيام هذا اليوم عادة وتقليد، نخشى أن يكون هذا دلالة على قسوة القلب.

نبدأ بالكلام عن قسوة القلب:

ومِن علامتها: عدم الفرح بمواسم الطاعة، وعدم الإقبال على ما يسّر الله من أسباب الوصول إليه، فعدم اغتنامك للفرص إشارة إلى قسوة القلب، واشتغالك بالدنيا.

أولًا: ما معنى قسوة القلب؟

ثم ما أسبابها؟

ثم ما علاجها؟

قسوة القلب: حال تمرّ على القلوب بسبب الأمن، والغفلة، وحبّ الدنيا فيمرض القلب، ويبطؤ سيره إلى الآخرة.

أعراض قسوة القلب:

1) عدم التأثر بالمواعظ، ولا بتربية الله مع فهمه لها، وربما مع ذكره لها!

فتجد أن المواعظ لا تحرّك فيه، ولا تؤثّر، ولا تقرّب، ولا تبعّد -لا تقرّب الإيمان والتقوى ولا تبعد الفسق-، فتصبح مشكلة قسوة القلب أن الموعظة لا أثر لها.

فيصبح -قاسي القلب- أعمى بعد أن كان بصيرًا! يصل إلى حد أنه يمكن أن يفهم جيدًا أفعال الله، ومع ذلك لا ينتفع منها، يرى أن الله يعاقبه لأنه فعل كذا وكذا، ومع ذلك تجده مستمرًا في معصيته وثابتًا عليها، مع تكرار وعظ ربه له!

فعلى ذلك تفهم أن القلوب القاسية أحد أعظم البلاءات التي ابتُلي بها أهل الإيمان؛ لأنّ صاحب القلب القاسي تجده لا ينتفع بالمواعظ، وأنت لا تملك لأحد إلا أن تعظه.

وتأتي المصيبة الأكبر: أن صاحب القلب القاسي يفهم أفعال الله، يفهم أن الله أخذ منه كذا من أجل كذا، وحرمه كذا من أجل كذا، لكن من شدة الغفلة، والأمن من مكره -سبحانه وتعالى-، ومبارزة الله بالمعاصي، يجد نفسه لا ينتفع بما وُعظ به.

فالله -عزّ وجلّ- يعامله بِلُطفه وحِلْمه، ويذكّره بأنواع من التذكير، ومع ذلك من شدّة الغفلة والأمن من مكره -أي لن تأتي مصيبة كبيرة، وأن هذه الأشياء يفكر فيها أنها شيء صغير

يستطيع أن يتجاوزه- فيتصور أن الله لن ينزل عليه مصيبة كبيرة، وأعظم المصائب لو تأمّل هي قسوة قلبه.

إذن قسوة القلب حال تمر على القلب، صاحبها كان بصيرًا ثم أصبح أعمى -لا يُرى عليه آثار فهمه لأفعال الله-.

فأنت تجد كثيرًا ممن هو أعمى في الأصل -أي لا يفهم عن الله-، لو علمته رق قلبه، واستجاب لك وانتفع بما تقول، لكن المصيبة أن تجد من كان مستقيمًا وعلى طريق الصواب تحول، هو في ظاهره لم يتحول، وصورته العامة أنه من أهل الاستقامة، لكنك تجده آمنًا غافلًا، ويجترئ على أعمال في الباطن -خصوصًا في الخلوات-، والسبب قسوة القلب.

فتراه لا يتعظ بالمواعظ، وربما مع ذكره لها، فقد يأتي هذا الشخص إلى أحد ويعلّمه هذه المواعظ، أي يحفظ من كلام الله ومن كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما يستطيع به أن يعظ أحدًا، ويفهم من تربية الله، تجده يردّد أن هذا الذي وقع علينا في المملكة من الحروب والزلزال والأمراض والسيول إنما هو من الذنوب.. فما أثر فهمك هذا على حالك؟ ما دُمْت تفهم أن هذا كله من الذنوب، فما موقفك من ذلك؟

هل بعد أن تعلمت عن تربية الله وفهمتها، تحركت وخرجت من الأمن والغفلة؟ أم أنك لا زلت تشعر أن هذا الأمر الذي وقع على غيرك لا يقع عليك؟

إذن من أعظم أعراض قسوة القلب: عدم التأثّر بالموعظة أو بتربية الله مع إدراكها وفهمها وإتقانها، إتقانها لدرجة أنه يتكلم بها، لكن مع ذلك لا تجد لهذا الكلام أثرًا على نفسه.

وهذا ما نجده اليوم.. كثرة كلام عن أن ما أصابنا وما حلّ بديارنا وقريب منّا إنما هو بذنوبنا، لكن انظر إلى أثر هذا التفسير على الشخص فردًا، تجده كما هو! لم يحرّك ساكنًا في الإقلاع عن ذنوبه، وفي العناية بوقته، وفي ترك الالتهاء بالدنيا، وفي ترك الجري وراءها!

فترى أن هذا ما هو إلا علامة على قسوة القلب.

2) أن العبد يتعرض لتربية الله، ويفتح له باب الطاعة ويعيش لمواسم طاعة، ثم لا يغير نفسه عن المعصية، ولا يجد في قلبه فرحًا بها، وإحساسًا بأنها سبب للبركة، وشوقًا لطاعة الله فيها، واستعدادًا للانتفاع بها خير انتفاع..

فهذه العلامة الثانية مبنية على العلامة الأولى.

العبد الذي قسا قلبه يربيه الله ويُجري عليه من المواقف والأحداث ما يُجري، ثم يفتح له باب طاعة، فتجده لم يغير نفسه عن المعصية، ولا فرح بباب الطاعة، كذلك تمر مواسم الطاعة عليه كغيرها، موقفه من مواسم الطاعة وفرص القُربة، لا يجد

في قلبه فرح بها، ولا شوقًا إليها، ولا حمدًا لله على بلوغها، لا يقدرها، ولا يقدر ثمنها، ولا يشعر بقيمتها، ولا يتحرك شوقًا إلى الانتفاع بها، فتراه يعاملها كما يعامل بقية الأيام! مع أن المفروض ألا يكون يوم صومك كيوم فطرك.

وهذه إشارة إلى أنه لا يُثمِّن هذه الفرص، فلا يجد في قلبه مثلًا قيمة لكلمة (أن صيام عاشوراء سبب لمغفرة سنة مضت) لا يجد، لا يشعر أنه شيء ذا بال، ذا قيمة مهمة.

وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يصومه ويرغّب الناس في صيامه، وكيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- استحبّ لكل مسلم ومسلمة صيام هذا اليوم؛ شكرًا لله -عزّ وجلّ-، وكيف أن صوم عاشوراء يكفّر الله به السنة التي قبله، والأحاديث في صيام يوم عاشوراء كثيرة.

لكن السؤال الآن: ألست تدرك أن الذنوب والمعاصي أثّرت على حياتنا؟!

ألست تدرك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصوم يوم عاشوراء ويرغب الناس في صيامه شُكرًا لله -سبحانه وتعالى-؟

إذا كنت تعرف أن من آثاره أنه يكفر السنة الماضية، وأنت معتني، خائف من ذنوبك، ترى آثارها من المؤكد أنه سيكون في قلبك عناية بهذا اليوم، خصوصًا وأننا سنصوم هذا

اليوم -إن شاء الله الأحد القادم-، وسيكون في وسط أعمالنا، وهذه الأيام أيام شتاء، فنهارها قصير، فستجد غالب الناس يصومون عاشوراء وهم في أعمالهم، وهم على ما هم من أحوالهم، وهم على ما هم من ذنوبهم!

المعنى: أنهم في الغالب لا يشعرون أنهم يجب عليهم أن يكون يوم صومهم مخالف ليوم فطرهم، لا يشعرون أنه لا بد أن يحفظوا ألسنتهم، ويحفظوا أعنيهم، وأسماعهم، ويحفظوا أبدانهم من معصية الله، ويستكثروا في هذا اليوم من العمل الصالح مع الصيام. لماذا؟

عناية به وشُكرًا لله تعالى.

ثم يأتي في هذا اليوم المبارك فتزداد المسألة، ويزداد شعورك بوجوب شكر الله، ومن هنا يتفرع علينا أمر إن شاء الله نختم به في آخر اللقاء؛ الكلام عن الشكر.

فتصور، نحن مطلوب منا أن نشكر الله على نجاة موسى عليه السلام، وهذا معناه أنه يُضادّ وصف الإنسان أنه كفور، أي: تصور أنك مطلوب منك أن تشكر الله على نعمته سبحانه وتعالى على موسى بالنجاة، مع بعدها من جهة الزمن، مع بعدها من جهة أنه ليس نبيك، أن نبيك هو محمد صلى الله عليه وسلم، فهذه إشارة إلى :

1. إلى مكانة الشكر.

2. وإلى بغض الله لأهل الكفر.

3. وإلى التنبيه أن العبد لا بد أن يبقى ذاكرًا لنعمائه سبحانه وتعالى، متحسِّسًا لها في كل أحواله، مترجمًا نقائصه –أي يترجم ما نقص عليه- بأنها أنواع من النعمة والرحمة.

أما من قسا قلبه، واعتاد الذنب، وأمن مكر الله، وظنّ أن بيده أن يتوب ويرجع وقت ما أراد، وظنّ أن كل من صام عاشوراء -أيًّا كان ما في قلبه- كان له هذا الوعد، ستجده يعامل عطاء الله بأبرد ما يكون، فلا ترى في قلبه حرارة لهذه الفرصة، لا يجد في قلبه فرحًا بموسم الطاعة، ولا يجد في قلبه شوقًا إليه، ولا حمدًا لله على بلوغه، ولا شدة عناية باغتنامه، وتجده يمرّ يومًا كباقي الأيام، إلا أنه سيختلف عليه متى يأكل ومتى يشرب.

نعم هو يشعر أنه يوم مهم ويصومه مع الصائمين، لكن لا يوجد في قلبه حركة خوف من ذنبه، تلحقها حركة توبة، تلحقها حركة فرح أن صيام هذا اليوم سيأتي على ذنوبه فيمحوها، لا يوجد في القلب شعور بحرارة طلب القبول، لا يقع في القلب مشاعر أن هذا من تفضّل الله عليه، لا يفكر العبد أن هذه الذنوب التي ستُغفر -كما ورد في النصوص الأخرى أنها الصغائر فيلحقه معاملة للكبائر، فيأتي في هذه الأيام المباركة وقبل أن يدخل إلى عاشوراء، ويسأل الله بتكرار، ويعاهد ربه أن لا يقع في هذه الكبائر مرة أخرى، فتجتمع له توبة عن

الكبائر، وكفارة عن الصغائر، فلو صدق في هذا الفعل، تحولت ذنوبه ومعاصيه إلى حسنات، بدّل الله عز وجل سيئاته إلى حسنات.

لا يشعر بقيمة مغفرة الله إلا من حرّقه الذنب، ووقعت عليه آلامه، فتراه يفرح بفرص الطاعة.

3) قحط العين (أو جمود العين)

خصوصًا في تلاوة القرآن، وحال ذكر الله، وهذا أمر واضح معلوم، أنه كلما وقعت قسوة للقلب، جفت العين، ويلحق هذا ما تراه من عدم خشوع في الصلاة.

فعدم الخشوع في الصلاة واستمراره -أي ليست في حال وحال، إنما مستمر في عدم الخشوع-، فهذا إشارة إلى ما وراءه من قسوة القلب.

وكأننا نقول عمومًا: انفلات القلب وقت الحاجة إلى جمعه، أي دائمًا لا تجد قلبك، ففرق بين أن يأتي ويذهب، وبين أنك دائمًا لا تجده، تبقى زمنًا -أي أسبوعًا أو أسبوعين- لا تجد قلبك أبدًا! تصلي لا تجد قلبك، فهذا مباشرة لا بد أن يشعرك أن هناك قسوة بدأت تدب إلى القلب.

4) الاستهانة بالذنوب والجراءة على معصية الله، خصوصًا وأنت تعلم عظم ذنب هذه المعصية، فترى نفسك كسلت عن المجاهدة، واتبعت هواك.

فتراه بعد أن كان ينبه نفسه ويحذرها ويباعدها ويمنعها، تراه استسلم لها، وعاملها معاملة الطفل المدلل، وتركها تفعل ما تريد.

مثلاً: كنت في مجلس، وتكلمت بما فتح الله عليك، ثم داخلك الرياء، فتجد نفسك كسلان عن مدافعته، لا تجد في نفسك قوة على مدافعة شعور الرياء، وتتركه يدخل، وتشعر بلذة ثناء الناس، ولا تذكّر نفسك أنك تريد وجه الله، ولا تستعيد بالله من الشيطان الرجيم، ولا تسأل الله -عزّ وجلّ- أن يدفع عنك.. ولا شيء! فتبدأ تتجرأ على المعصية.

يقع في قلبك عجب، كبر، فتراك لست نادمًا، ولا محاسبًا، و لا مستعيذًا.

ومثل هذا في الذنوب البدنية، تجد نفسك تتجرأ على عقوق الوالدين، وتراه أمرًا يسيرًا، أي: تستطيع أن تعوضه، وغضب اليوم لا مشكلة فيه، غدًا سأراضيهم.

وتراك تستهين بمجالس الطلب والعلم -لو كنت طالب العلم-، وتقول: ما لا أجده اليوم أجده غدًا! هذا الكلام معصية، من أيّ جهة؟

من جهة البطر، وأنتم تعلمون أن هذا البطر ضدّ الشكر المقصود والمراد، {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[2].

إذا وجدت في نفسك هذه المشاعر اعلم أن قسوة قد أصابت قلبك،

هذه الأعراض مبنية بعضها على بعض؛ أول عرض من الأعراض أن تُرى كأنك بصير، كأنك تفهم أفعال الله، وكأنك تدري ما معنى أن يقع عليك كذا وكذا، تتكلم كأنك بصير، وأنت في الحقيقة أعمى في صورة بصير! -لا أقصد بصير أي البصر الحسي، لكن أقصد البصيرة-، فتراك تعظ هذا وتخوفه من الذنب، وتعظ هذا وتخوفه من الذنب، وأنت لا تتأثر بالموعظة، ما تقوله بلسانك لا تجد له أثرًا في وجدانك.

معنى ذلك أنك تعلم، وهذا أعظم ما يخيفنا، أن أكون أعلم عما يغضب الله وما يرضيه، وأعلم ما معنى هذه الأفعال التي تجري عليّ من أفعاله، ثم تراني أعظ الناس، ثم أجد الكلام الذي أعظ به الناس بعد أن كان يؤثر فيّ، أصبح لا يؤثر، معنى ذلك أن الإنسان يمر بفترة قسوة القلب، ولو استمرت ستأتينا ببلاءات أشد منها، فكأن القسوة رأس للباقي.

كان هذا أول عرض وأهمه ثم يأتي بعده الباقي..

---

[2] [الإنسان: 3]

إذا كنت تعلم قيمة الذنوب وخطرها عليك، وكنت تعلم أفعال الله، وكنت تعلم مراضيه، وتعلم محابّه، وتعلم كل هذا، ثم تأتيك مواسم الطاعة فلا تتحرك لها، ولا تغتنمها، ولا تفرح بها، و لا تشتاق إليها

معناه أن في قلبك قسوة.

يبُنى على ذلك أنك لا تجد عندك قلب في مواطن الخشوع، فلا تخشع في الصلاة، وقلبك جامد، هذا كله يشير إلى قسوة في القلب.

المقصود أن القلوب القاسية تتطور فتتجرأ على معصية الله مع علمها أن هذه معصية، وأن هذا يغضب الله -عزّ وجلّ-، ترى فيها نوعًا من الاستهتار، فبعدما كانت تراعي حقوق الله، وحدود ما حد، وتراعي حقوق الخلق، وتعتني بإيفاء كل ذي حق حقه، تراه تجرأ على معصية الله واستهان.

فهذا أيضًا من آثار قسوة القلب؛ الاستهانة بالذنوب والجراءة على المعصية.

5) عدم العطف على الفقراء، أو الرحمة بالصغار، عدم حب الخير للناس.

فبعدما كان في قلبك لين ورقة للفقراء، ورحمة بالصغار، واحتساب في معاملة الناس، ترى أن الأمر تحول بالعكس، فلا ترى في قلبك رقة للفقراء ولا رحمة على الصغار، ولا احتسابًا

في معاملة الناس، فتتحول من صاحب نفع متعدي إلى شخص أناني لا يفكر إلا في مصلحته، ولا يرى معاملة الناس فرصة للقربة إلى ربه.

فتراه لا يحسن في معاملة هذه الفرصة، فأنت أمامك فقير، وأمامك طفل، وأمامك باقي الناس، كل هؤلاء جعلهم الله في طريقك سببًا لرقة قلبك، فعطفك على حال الفقراء، ورحمتك بالصغار، وحبك وأدبك وحسن ظنّك بالكبار.. هذا كله يجعلك تقترب إلى الله بمعاملة هؤلاء.

فإذا وجدت نفسك فقدت هذا العطف وهذه الرحمة وهذا الاحترام، وفقدت قدرتك على التواصل مع الناس، واعتبار أنهم جسر يوصل إلى الله فاعلم أن هذا من أعراض قسوة القلب.

خصوصًا أنك تفهم أن مرور زمن عليك وأنت ترق للفقراء، وترحم الصغار، وتتأدب مع الكبار، مرور هذا الزمن عليك كان في الغالب وأنت معك قوة إيمان، فلما ذهب الإيمان، ذهبت قوته، وبقي ضعيفًا والقلب قاسيًا، كانت النتيجة أنك فقدت هذه المشاعر، فهذه المشاعر لا يأتي بها إلا الإيمان.

نكتفي بهذه الأعراض الخمسة..

نأتي إلى الأسباب..

لماذا تقسو القلوب؟

لا بد من اعتقاد أن قسوة القلب من الابتلاءات العظيمة، وهو مرض يحتاج إلى علاج، لكن قبل أن يكبر، لا بد أن تفكر في أسباب تمنع تعاظمه وترده إلى أصله.

أنت ترى أن هناك أسبابًا أحاطت بك، فلو استسلمت لها سيزيد المرض، فعالج الأسباب أولًا وامنعها عنك، ثم عالج ما وقع في نفس قلبك.

نذكر الأسباب من أجل أن نبتعد عنها ليخف علينا وطأة المرض، ثم نتكلم عن علاج ما وقع في القلب من قسوة.

نبدأ أولًا وعلى رأس جميع الأسباب، السبب الذي مر معنا الأسبوع الماضي في شرح {ألهاكم التكاثر}:

1- الالتهاء بالدنيا، لا يقسو القلب إلا إذا فتح باب الدنيا علينا و استسلمنا له، فإذا طال أملك ضعف عملك.

طول الأمل والرغبة في الدنيا والتعلق بها، لا زال يتكرر فيه الكلام، لا زلنا نتواعظ فيه، وقد مرّ معنا الأسبوع الماضي من الكلام ما يغنينا عن إعادته اليوم.

وكيف أن الله عز وجل وصف الدنيا في سورة الحديد وصفًا بالغًا؛ لكي ينخلع قلبك منها.

وفي سورة التكاثر، وكيف بيّن الله عز وجل لما أقسم بالعصر أن كل الناس يصيبهم الخسر، إلا من أتى بالصفات الأربعة، فلماذا اشترك الناس في الخسر إلا من استثنى؟

بسبب قوة التهائهم بالدنيا.

ثم إذا نظرت جيدًا في سورة الحديد سترى عجبًا من تتابع الآيات، فبعدما وُصف حال المؤمنين وهم يسيرون في نورهم، نور الله الذي وقع في قلوبهم من العلم والهدى وتأثروا به، وكيف أن نور الله نفعهم في الدنيا والآخرة، ثم وُصف بعد ذلك المنافقون، وكيف أنهم مع المؤمنين في الدنيا مختلطين بهم، وفي هذا الموقف الرهيب أيضًا كانوا مختلطين إلا أنهم ضرب بينهم بسور.

الشاهد: أن المؤمنين أخبروا هؤلاء المنافقين بأسباب حصول هذا الحال لهم، وأنهم لم يدخلوا مع أهل الإيمان مع أنهم كانوا معهم، أي أن المنافقين يقولون للمؤمنين: ألم نكن معكم؟ قالوا: بلى، لكن فتنتم أنفسكم، وتربصتم، وارتبتم، وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله، وغركم بالله الغرور!

{يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ}[3].

أي: لو بدأنا من أول وصف، وننظر إلى الآخِر سنجده يدور في حلقة واحدة..

[3] [الحديد:14].

{فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ} بحب الدنيا وطول الأمل، {وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ} أي أنكم اغتررتم بحلمه، فبقيتم متعلقين بالدنيا راكنين لها متمنين.

الوصف قبل الأخير: {وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ} أي أنكم تتمنون على الله أن يقبل منكم هذه الأعمال التي ليست بشيء، التي ليس فيها قلوب، تتمنون على الله أن يعاملكم كما عامل المؤمنين الصادقين الذين اختبر صدقهم فنجحوا في الاختبار.

إذن هذا من أعظم أسباب قسوة القلب: أن تبقى مفتونًا بالدنيا فاتنًا نفسك فيها.

والحقيقة أن آيات سورة الحديد في وصف النفاق، أنا أرجو من الله أسأله سبحانه و تعالى أن ييسر لي ولكم أن نفهمها فهمًا دقيقًا من أجل ألا نعرض نفسنا لهذه الخمسة أوصاف.

فترى الناس يعيشون على الأماني، مغترين ببعض الأعمال الصالحة، يظنون أن ربهم ينظر إلى صورهم، ناسين أنه سبحانه وتعالى ينظر إلى ما قام في قلوبهم، فترى القلوب قاسية، والأبدان صائمة! ترى القلوب قاسية والأبدان قائمة!

ويتمنى هذا العامل عملًا ضعيفًا، -يكاد لا يكون شيئًا- يتمنى على الله الأماني!

ثم مع ضعف عمله لا تجده منكسرًا يطلب القبول، ولا متذللًا خائفًا يستغفر من النقص، أبدًا، أي تراه يحكم على نفسه أنه مقبول العمل.

ولذلك ترى بعض المغترين يأتون فيقولون لك: نحن صمنا يوم عرفة، وكان يكفر سنتين، والآن نصوم يوم عاشوراء، ويكفر من الذنوب سنة مضت.

فكأنه يقول بلسان حاله: نحن لسنا بحاجة إلى صيام يوم عاشوراء، لأننا معنا مغفرة سنة وأكثر!

فانظر إلى هذا الذي قد قسا قلبه، كأنه ما سمع حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي رواه البخاري في صحيحه، لما أتى ابن أبان إلى عثمان رضي الله عنه بطهور، وهو جالس على المقاعد، فتوضأ عثمان رضي الله عنه فأحسن الوضوء، ثم قال: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم-يتوضأ وهو في هذا المجلس فأحسن الوضوء، ثم قال: ((مَن تَوَضَّأَ مِثْلَ هذا الوُضُوءِ، ثُمَّ أتى المَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ)) إلى هنا معروف، قالَ: -أي عثمان- وقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((لا تَغْتَرُّوا))[4].

الحمد لله الذي علمنا، أي بعدما علمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أثر العمل الصالح على ذنوبنا، حذرنا من أن نغترّ بها،

---

[4] [رواه البخاري في صحيحه].

-أي من أن نغتر بآثار العمل الصالح علينا-، فقد يذنب مذنب ويتصور أنه لو صلى ركعتين غُفر له، ويغتر بذلك، فتراه بين ذنب وبين صلاة ركعتين، ونقول هذا نوع من الإصرار، وتلاعب، فلو لم يكن قلبك منيبًا منكسرًا عائدًا تائبًا، لا تُحَقّق لك هذه الأجور، فهؤلاء كما قال الله عز وجل في سورة الحديد:
{وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ}

لذلك النبي-صلى الله عليه وسلم- بعد هذا الحديث الذي فيه أجر من توضأ وصلى ركعتين -أجره غفر له ما تقدم من ذنبه-، قال النبي: لا تغتروا، فالحمد لله الذي علمنا قبل أن نغتر فيُذهب بأعمالنا التي نظن أنها صالحات.

والمعنى أن قسوة القلب من أهم أسبابها الركون إلى الدنيا وطول الأمل، حتى أن العبد يناقشك في الأعمال الصالحة، مغرور يظن أنه قُبل عند الله، مشتغل بالدنيا، يكذب على نفسه أن الله خلقنا من أجل عمارة الأرض!

فترى عجبًا من تخبط الناس وتعلقهم بالدنيا.

إذن هذا أول الأمر -هذا أعظم الأسباب-؛ الركون إلى الدنيا وطول الأمل أكبر مسبب لقسوة القلب.

2- مصاحبة أهل القلوب القاسية، أو أحسن من ذلك تعبيرًا: مصاحبة أهل الدنيا المشتغلين بها، فهؤلاء يزينون لك الدنيا ويحببونها إليك.

في مقابل أن من تعلق بالآخرة وسعى لها سعيها، لو صاحبته، سترى نسيم الشوق إلى الله ولقائه يهبّ على قلبك، فيذهب بوهج الدنيا.

ولذلك نحن أكثر من يؤثر علينا، ويسرّب لنا القسوة تسريبًا، ويغير لنا أفكارنا بصورة دقيقة هم: أصحابنا.

فربما يعيش العبد حياته كلها لا يجد له صاحبًا يعينه على طاعة الله، من كثرة انتشار حب الدنيا والتعلق بها، لا ترى القوم بعدما مرّ بهم من الأحداث والأوضاع، ولا زلنا ننتظر رحمة الله تكشف عنا ما يخيفنا، لكن مع ذلك تجد أنه لا زال الناس يتعاونون على الإثم والعدوان.

ونحن في الحقيقة تعَجَّبنا في وقت الأحداث، سواء مثلًا؛ السيل الذي مر على جدة، أو ما وقع من حروب في جنوب المملكة، تعجبنا من بقاء أوضاع الأفراح كما هي.

الناس بقي بذخهم، بقيت معاصيهم، وبقي ما يأتون به من معاصي في الأفراح كما هي، كأن نذيرًا لم يقع عليهم، وهذا في زمن الأحداث!

فلا تجد أحد يعينك على طاعة، وتجد الصحبة تهون عليك أمر التعلق بالدنيا.

هذا السبب الثاني من أعظم أسباب قسوة القلوب، وهو مصاحبة أهل الدنيا، أهل القلوب القاسية، فتراهم يقسّون قلبك

حتى لو أتت رياح اللين، حتى لو فكرت أن يلين قلبك تجدهم لك بالمرصاد.

3- الإعراض عن العلم الشرعي، وبالذات عن تدبـر القرآن.

أي الإعراض عن العلم عمومًا وبالذات تدبر القرآن، لأن هناك كثيرين أصيبوا ببلاء الإعراض عن العلم، وساعد على ذلك صحبة حولهم، أو قوم هيؤوا لهم وبغضوهم في الطلب، وأشعروهم أن هذا باب طويل مملّ لا يوصل العبد إلى مبتغاه سريعًا، فترى القلوب تقسو كلما بعدت عن العلم، وتلين كلما اقتربت منه.

لكننا لا نريد أيّ علم، وهنا تأتي الملاحظة، لا بد من الإقبال على العلم وبالذات فهم كلام الله وكلام رسوله، لكن ليس أيّ إقبال، وإنما {خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}، كن جادًا صادقًا، تنزّل هذا العلم على قلبك قبل أن يكون على سمعك، اعلم أنك المخاطب، عامل ما حولك بقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((مِن حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يَعْنيه)) [5]، { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ }[6]، اجمع لقلبك أسباب الانتفاع بالعلم؛ كرره، وعمقه، وعايشه، ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

---

[5] [رواه أحمد في مسنده]

[6] [طه:131]

فأنت ترى أن التلبس بالعلم ليس سببًا وحده للين القلب، بل لا بد أن يكون صاحبه صادقًا في إراداته، ماذا تريد؟ لذلك على طالب العلم أن يراجع قلبه دائمًا؛ ماذا تريد من هذا الذي تفعله؟ ماذا تريد من طلبك؟ لماذا لا نرى للطلب عليك أثرًا؟!

فترك طلب العلم، أو طلبه بدون صدق ونية كشف الجهل عن نفسه، وكشف الجهل عن الآخرين، والدفاع عن الشريعة، و نشر الحق،

بدون هذه النيات أصبح وبالًا على أصحابه، فلا تراه ينفع صاحبه.

لذلك نناصح طلبة العلم لكي لا تقسو قلوبهم وهم داخل العلم، أن يجمعوا لأنفسهم: بين صدق وإخلاص وشيء من العزلة.

فإننا نرى كثيرًا من الخلطة حتى بين طلبة العلم سببت القسوة، وهذا سيكون السبب الرابع.

4- من أسباب قسوة القلب: كثرة الخلطة، حتى بين طلبة العلم.

فلا بد أن يكون لطالب العلم زمن يخلو فيه مع ربه، وفي هذا الزمن ينتفع بالتدبر والتأمُّل، وينقطع عن ملاحظة الناس، وملاحظة آثارهم، أو أفعالهم، أو تصرفاتهم.

المقصد أن من أسباب قسوة القلب كثرة الخلطة مع الناس، حتى بين طلبة العلم.

لماذا كثرة الخلطة تسبب قسوة القلب؟

* لأن كثرة الخلطة تسبب كثرة الكلام بغير ذكر الله.

* كثرة الخلطة فيها إضاعة للوقت بغير فائدة.

* كثرة الخلطة تجعل العبد يلاحظ الناس، وينصرف قلبه للعناية بهم، فلا ينجّي نفسه، يشتغل بالناس عن نفسه.

5- من أسباب قسوة القلب: عدم الاهتمام بالدعاء بالذات الدعاء المأثور عن النبي-صلى الله عليه وسلم-:

((يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك)) [7].

عدم العناية بالدعاء سبب لأن تدخل القسوة إلى القلب، وينقلب القلب من قلب لين إلى قلب قاسي، ونحن في غفلة عنه.

لكن لما تطلب الحفيظ أن يحفظه وأنت مجتهد حريص على أن يبقى قلبك لينًا، لا تتصور أن الله يخذلك.

فنحن أصلًا لمَ ننسى الدعاء ((يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك))؟ ننساه لأن عندنا مشاعر الأمن أننا سنبقى على حالنا، لمّا يقوى إيماننا ننسى ((يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك))، لماذا؟ لأننا في شعور من الأمن أن هذه الرقة التي معنا لا تنقلب قسوة، أن قوة الإيمان التي معنا لا تنقلب ضعفًا.. وهذا مما يسبب لك الأمن من مكره، وهذا في حد ذاته مصيبة عظيمة.

---

[7] [رواه الترمذي في سننه].

فمن أسباب قسوة القلوب: الأمن إلى ما في القلوب من إيمان ومن رقة مما يجعل العبد ينسى {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} **فلا تنسَ ذلك، و ابق سائلًا الله :** ((يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك)).

ومن المؤكد أنك تعلم أن إيمانك مقارنة بإيمان النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس بشيء، ومع ذلك كان مما يكثر النبي-صلى الله عليه وسلم-الدعاء به: ((يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِك)).

6- أيضًا من أسباب قسوة القلب: نسيان الموت والقبر والدار الآخرة

وهي وإن كانت تدخل في أول نقطة، لكن تزيد عنها؛ لأن العبد أحيانًا يكون مشتغلًا بالعلم مثلًا، حريصًا على الكتابة، وعلى القراءة، وعلى الحفظ، ثم ترى قلبه يتفلت عن نيته، وينسى أنه يقلب صفحات هذا الكتاب ليدخر حسنات من أجل أن ينار قبره، وأن يثبت وهو يكلم ربه، وأن يثبت وهو يقول لا إله إلا الله، وأن تقبضه ملائكة الرحمة، ينسى مقصوده من وراء تقليب صفحات كتابه، أو كتابة العلم، أو مذاكرته، ينساه، فلما ينساه يقسو قلبه ويصبح مجرد كلامًا يقول بلسانه.

فلذلك لو بقيت حاملًا لهم قبرك حملًا شديدًا، وترى أنك تمشي في الدنيا في سعة فتخشى أن يكون قبرك مكان الضيق، وتعتبر

مثلًا -نسأل الله أن يمن علينا بالصحة والعافية، صحة القلوب وصحة الأبدان- بموقف تعيشه أنك تكون مريضًا فتحبس على سرير، فترى ما يصيبك من ضيق، فتصور أنت في الهواء الطلق، لكنك محبوس وترى ضيقًا شديدًا، فكيف لو كنت في هذه الثلاثة أذرع، وأهيل عليك التراب، ماذا ستجد من ضيق لو لم تستعد لهذه الدار وتوسعها بالأعمال الصالحة؟!

فاجمع قلبك على أن أعمالك هذه تريد منها رضا الله، والفوز بالجنة والنجاة من النار، واجعل أمام عينيك أعظم المقاصد {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}.

فكأننا نقول: كيف يكون طالب علم مثلًا، أو مدمن على حلقات الذكر ثم يكون قاسي القلب؟

نقول: نعم، قد ينسى العبد لماذا يفعل هذا الفعل، فيتحول هذا الفعل من كونه سببًا للين قلبه إلى أن يكون سببًا لقسوة قلبه.

ولذلك ترى بعض ما يحصل بين طلبة العلم من تحاسد، وتنافر، وتباغض، وتنافس ليس مقبولًا، كل ذلك لأنهم نسوا ماذا يريدون من وراء طلبهم للعلم، ومن وراء اجتماعهم على العلم، ومن وراء عنايتهم بهذا العلم.

نكتفي بهذه الأسباب في أسباب قسوة القلب، ونبتدئ بالمعالجة.

علاج قسوة القلب:

1. أهمه وأعظمه على الإطلاق: تدبر القرآن

وتدبر القرآن سيجمع لك أمورًا:

أولًا: كلما تدبرت القرآن، تعلمت عن أسماء الله عز وجل وصفاته، فالرقة تأتي بعد معرفة الرب، وستعرفه بأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

إذن رأس العلاج هو تدبر القرآن، فكلما تدبرت القرآن، تعلمت عن أسماء الله عز و جل وصفاته، وإذا تعلمت عن أسماء الله عز وجل وصفاته لا بد أن تأتيك الرقة.

تحت تدبرك للقرآن: ستتعلم أمثال القرآن التي هي بمثابة السرج -أمثال القرآن سرجه- أي بمثابة السراج.

فيزداد قلبك رقة كلما تعلمت معاني الأمثال التي ضربها الله، وكان أثرها على الذين آمنوا أنهم ازدادوا إيمانًا، كما ورد في سورة البقرة {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ}، ثم قال سبحانه وتعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا} معنى هذا أن فهمك للأمثال سبب لهدايتك وصلاحك ورقة قلبك، وستجد في داخل التدبر من أسباب رقة القلب ما تجد.

فاعتن بأن تكون صاحب ورد في تفسيره، كما أنك صاحب ورد في قراءته.

أيضًا ستجد تحت تدبر القرآن أنه نوع من أنواع ذكر الله، وهذا سيكون العلاج الثاني.

2. **العلاج الثاني: كثرة ذكر الله**، والقرآن من ذكره، لكن نجمع بين أبواب الخير، فنقرأ القرآن ويكون من ذكره، ونذكره ذكرًا مطلقًا، وذكرًا مقيدًا -كما في أذكار الصباح والمساء-، فلا يزال لسانك رطبًا بذكره سبحانه وتعالى.

وإذا ترطب اللسان بذكره ⬅️ ترطب الفؤاد، ونزلت عليه الرحمات، وييسر الله عز وجل له أبواب القربات.

إذن كثرة ذكر الله من أسباب علاج قسوة القلب، لكن لا تنسَ أن هذا الذكر يجمع بين ذكر اللسان وذكر القلب، لذلك كما ورد عن الحسن البصري أن رجلًا شكا له قسوة قلبه فقال له: عليك بذكر الله. فكأنك ترى كما قال ابن القيم: "وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة، اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار".

3. **نأتي إلى السبب الثالث من طرق العلاج: التوبة.**

لأنك كما تعلم أن قسوة القلوب نوع من أنواع العقوبة، فعندما يرتكب الإنسان ذنبًا، فإن أحد أعظم آثار ذنبه: أن يخرج الإيمان أو جزء منه من قلبه، فإذا خرج الإيمان أو جزء منه من قلبه، استبدل بقسوة.

فإذا لم تجد قلبك، أكثر من ذكر الله، فإذا لم تجد نفسك قادرًا بعد مجاهدات كثيرة على جمع قلبك في الذكر أو في تدبر القرآن، اعلم أن وراء هذا ذنبًا ارتكبته، فتُب من الذنوب، يذوب بإذن الله ما في القلوب من قسوة.

4. أيضًا من أسباب العلاج: كثرة الشكر، كثرة شكر الله

وهذه الحقيقة علة عليلة موجودة في القلوب، وهي من أكثر ما ترى سببًا لقسوتها؛ كفران نعمة الله.

تسمع كل أحد -يؤسفنا هذا الكلام الحقيقة- في هذه البلدان، خصوصًا من يوصفون بأنهم ذوي الدخل العالي، حياة مستقرة وبيوت آمنة، ثم يتذمرون من كل شيء، كأنهم لا يسمعون حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- ((مَن أصبحَ مِنكُم آمِنًا في سِرْبِه، مُعافًى في جسَدِهِ، عندَهُ قُوتُ يَومِه، فَكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا)) [8]، طبعا هنا المسألة مركبة على بعضها، طمع في الدنيا، صحبة تشعرك أنك ناقص، تهيجك على الدنيا وحبها والتعلق بها، مما يجعل الناس يتذمرون من كل شيء على الإطلاق! بهذه الكلمة.

ثم أن هذه البلاءات التي نزلت علينا كشفت في الحقيقة نفوسًا، وبيّنت كيف أن الناس امتلأت قلوبهم بالطمع، فبعد أن نجاهم الله تعالى مما وقع عليهم، وحماهم، وحفظهم، يكلمونك بكلام

---

[8] [رواه الترمذي وابن ماجه في سننهما]

عجيب، يكلمونك أنه لو كان هناك عناية بالمواطن لما كان حصل كذا وكذا! لو كان هناك إعطاءات وامتيازات كان حالنا سيكون أفضل!

فهل هذا شكر نعمة الحفظ؟ وهل هذا ما كان يُنتظر في معاملة الرب بعدما نجاك وسلمك؟!

أنا لا أستطيع أن أنقل كل الكلام، لأن بعض الكلام يصل إلى مسبة الرب!

وكما تعلمون هناك وجهان في كل مسألة، وجدنا الشاكرين الذاكرين الحامدين، الذين شعروا أن بقاءهم من أعظم النعم، ففرحوا بهذه الفرصة وانكبوا على طاعة ربهم.

لكن هذا لا يمنع أن نذكر الصنف الثاني المسموع المرئي الذي ترى في أطماعه العجب، وليس فقط في أطماعه، إنما في ظنه بربه، في ذكره لربه، في عدم الترضي، تراه ساخطا على كل شيء.

فسبحان الله، كتبت لك النجاة، حفظ لك شيء من ممتلكاتك، كان عليك بعد هذه الحال أن تذكر ربك وتزداد قربًا بعدما رأيت بنفسك الموت! أليس هذا من أعظم النعم؟!

لكن لو خاطبت بهذه المخاطبة، سيقال لك: الذي لم يُصب ليس مثل من أصيب، الذي لم يفقد ليس مثل من فقد، نسأل الله أن يثبتنا وأن يزيدنا إيمانًا وحسن ظن به، ونسأله سبحانه

وتعالى أن يكشف عن القلوب ما وقع من كفران نعمة الله، فهذا أكثر ما يؤلم في الحدث.

لأن البيوت تعوض، والأبناء يعوضون، قد قُدّموا بين يديكم إلى الجنة،

وقد كان بقاؤهم في الدنيا فتنة، فلما ذهبوا تحولوا إلى رحمة، فهل تقابل نعمة الله بالكفران؟! وهل ربك المنعم يستحق منك السخط على أقداره؟

فإذا كان مطلوب منا أن نشكر الله تعالى على نعمة نجاة موسى، فكيف ننسى نعمة نجاتنا؟!

كأنه يقال لك: لا بد أن تبقى -إذا كان معك قلب- ذاكرًا لنعمائه كلها، دقيقها وجليلها، وإذا بقيت ذاكرًا، لا بد أن تبقى مثنيًا على ربك، محسنًا الظن به.

لا تكن ذاك الإنسان الذي إذا مسه الضر يؤوس من رحمة الله أن يبدل الله النعمة، كفور بما مضى من نعم الله عز وجل.

وهذا إشارة إلى أن دوام استشعار النعم الذي يلحقه دوام الشكر، سبب للين القلب.

فمن أعظم الأسباب للقسوة: هو نسيان النعمة، ويقابلها: من أعظم أسباب لين القلب: بقاء شكر النعمة.

لذلك لا ترى هؤلاء -لما تأتي فرص الطاعة- يقبلون على ربهم مطيعين شاكرين له؛ لماذا؟ لأن القلوب قست عن الشعور

بالنعمة، وهذا والله مصيبة، فترى الناس على وجه العموم سواء أصيبوا أو لم يقع عليهم مثل هذه المصابات، تراهم يتذمرون من كل شيء وفي كل وقت.

ويقولون: نحن لا نتذمر على فعل الله، بل نحن نتذمر من فعل فلان وفلان، وكأنهم ينسون حديث النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((إنَّ مِن ضَعفِ اليقينِ أن تُرْضيَ النّاسَ بسخطِ اللَّهِ، وأن تَحمَدَهُم على رِزقِ اللَّهِ، وأن تَذمَّهم على ما لم يُؤْتِكَ اللَّهُ إنَّ رزقَ اللَّهِ لا يجرُّهُ حِرصُ حَريصٍ، ولا يردُّهُ كُرهُ كارِهٍ))[9] فلو كان رزقك، أتاك.

وينسى العبد أن هذا المصاب من أعظم ما يُتقرب بالصبر عليه إلى الله، فلما يصيبك بنقص في نفسك، في مالك، في ولدك، في سيارتك، حتى في الطرق التي تمر بها وترى نقصها، كل ما يمر عليك من نقص، إن صبرت وشكرت، كان سببًا لرفعتك عند ربك.

ثم ماذا نقول: يا أهل الصحراء، كنا من قريب ليس عندنا، وليس عندنا، وليس عندنا... فبعدما منّ الله علينا بالاجتماع،

---

[9] [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٧٦) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه لكتاب التوحيد: هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي وأعله بمحمد بن مروان السدي، وقال: ضعيف، وفي إسناده أيضًا عطية العوفي ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين، وموسى بن بلال، قال الأزدي: ساقط، ومعنى الحديث صحيح.]

وبالخيرات، وبرغد العيش، وأعظم النعم الأمن والأمان، يكون هذا حالنا؟!

فإن النعم بقاؤها ودوامها سببه الانتفاع بالشكر على النعمة، فشكر النعمة ينفعك في أن تتحول هذه النعمة إلى قربة في حقك، أي ينعم عليك ثم يحولها في حقك إلى قربة، لو أنك شكرت.

والشكر يزيد هذه النعمة ويثبتها، والشكر دليل بقاء ذكرك له سبحانه وتعالى، والشكر دليل رضاك عنه، ... وإلى آخر ما تتصور من مصالح الشكر.

وهذا كله يجعلك تفهم أن الشكر الذي هو عبادة انقطع من القلوب والألسنة بسبب قسوة القلوب، فما الذي يجعلك ليّن القلب؟

كثرة الشكر المبني على كثرة النظر إلى نعم الله والتدبر فيها.

الحمد لله الذي جعل الإسلام دينًا، وجعل محمدًا -صلى الله عليه وسلم- نبينا، نحمده سبحانه أن عرفنا به، فبفضله ومنته الذي ابتدأنا بها سبحانه وتعالى، لم نكن عبدة للقبور، ولا للبقر، ولا للفئران، ولا لبوذا، ولا لتماثيل، وأصنام... هو الذي منّ علينا أولًا بالإسلام، فلا تفسد قلبك بترك ذكر نعم ربك وشكره عليها، فوالله ستأتي الساعة التي ستسأل فيه عن كل نعيم عشته!

والله ستأتي الساعة التي سترى فيها آثار شكرك كيف تعظم لك ميزانك وترفع لك ذكرك!

فليّن قلبك بكثرة النظر إلى نعمه وتدبر فيها، ولاحظ هذا الأمر العظيم؛ أننا أمرنا بشكر الله على نجاة موسى، ونحن أحق بموسى من بني إسرائيل، فكل أهل التوحيد أحق بالأنبياء الذين يدعون إلى التوحيد.

فتصور ستصوم شكرًا لله على نعمة نجاة موسى، فأين أنت من شكر النعم التي تعيشها وتخالطك كل وقت؟!

ما بالك لست راضيًا عن ربك؟ لا تنظر إلا بعين السخط إلى أقداره،

ما بالك لست راضيًا عن زوجك وبيتك وأولادك، ما بالك لا تنظر إلى كل نقص أنه سبب للكمال؟!

لا بد أن تعلم أن الله يبغض أهل الكفر، لا بد أن تكون على يقين أنه يحب منك الشكر، لا تُقسِّ قلبك بتذكير نفسك بما ينقصك، فهو له ملك السماوات والأرض الغني الرحمن الرحيم ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة، عزيز إذا قضى أمرًا كان كما قضى سبحانه وتعالى {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

فلا تتصور أن أحدًا غير الله منعك، ولا تتصور أن أحدًا غير الله أعطاك، فلما منعك، منعك لحكمة، ولما أعطاك، أعطاك

تفضلًا منه، فلا تُقسِّ قلبك بكثرة ذكر ما ينقص، بل إذا ذكرت ما نقصك، طمئن قلبك أن وراء هذا النقص مصلحة تلحقني في الدنيا، ومصلحة تلحقني وعوض لمّا ألقاه.

أي : في الدنيا مصلحة أن تُمنع شيئًا، وفي الآخرة يأتيك التعويض العجيب العظيم لما نقص عليك في الدنيا، فهل عاملت كريمًا مثل ربك؟! وهل عاملت رحيمًا مثله؟! وهل عاملت حليمًا مثله؟! وهل عاملت غنيا مثله؟! تبارك سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

لكن انطوت النفوس على نشر المعائب، والنقائص، وسكتت عن النعم والعطايا! وهي لا تدري أنها تشتكي أرحم الراحمين لمن لا يرحم! ولا تدري أن ما ظننته أنه معائب ونقص، إنما هو كمال، لكن لا يفقه ذلك إلا من كان له قلب.

فيا ربنا ارزقنا قلبًا حيًا نكون فيه من الشاكرين، وادفع عنا أن نكون من الآيسين القانطين الكافرين بنعمائك، فنحن لا نظن بك إلا خيرًا، ولا نرى في كل أفعالك إلا خيرًا، وما أتانا منك إلا خيرًا.

نعلم أننا نعيش في نعمائك، محفوظين بحفظك، قد أنعمت علينا بأعظم النعم، أن سويت لنا فطرنا، وأن صفيت لنا قلوبنا، وأن أنرتها بهذا العلم،

فسبحان من جمّع من هم في شرق الأرض وغربها، يجتمعون فيستمعون إلى العلم عنه.

فنحن نستعجب من تيسير طرق الطاعة اليوم، ونرجوه أن يجعلنا من الشاكرين، من المنتفعين لمواسم الطاعة، من المكثرين للصيام في هذا الشهر الحرام، ممن دخل على عاشوراء تائبًا راجيًا أن تكمّل له النعمة بمغفرة ذنوبه، ممن دخل عاشوراء يراها فرصة للقرب منه، يرجوا الله أن يختم له خاتمة حسنة، نرجوه سبحانه وتعالى أن يختم لنا بخير وأن ينفعنا بهذه الوسائل المقربة للعباد الجامعة لهم على ذكره.

نسأله سبحانه تعالى أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين التالين لكتابه، اللهم آمين.